المبحث الرابع
توسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة
٥٢١هـ - ٥٤١هـ/١١٢٧ - ١١٤٦م

بدأ عماد الدين زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم المدن التي حولـه والقريبة منه، بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية التي منحهم السلاجقة إياها، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام، إلى سلطة فعلية، ولذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً. كانت البوازيج - الواقعة على طريق الموصل، عند مصب الزاب الأسفل - أولى المواقع التي استولى عليها زنكي وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام ٥٢١هـ لتولي مهام منصبه، مستهدفاً من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة لـه لحماية ظهره في حالة تصدي - وصي حاكم الموصل - لزحفه ثم استمر في سيره نحو الموصل، وعندما وصل جاولي نبأ تقدمه على رأس قوات حاشدة، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل أدرك أن ليس في طاقته التصدي لـه وآثر السلامة، فخرج لاستقباله، يصحبه أمراء الموصل وقادتها، وما إن التقى به حتى ترجل وقبل الأرض بين يديه وأعلن طاعته لـه، فأقطعه زنكي مدينة الرحبة وأعمالها، وسيره إليها [١].

أولاً: جزيرة ابن عمر ٥٢١هـ:

بعد أن رتب عماد الدين زنكي أوضاعه في الموصل، أراد الانتقال إلى جزيرة ابن عمر وسار بقواته إليها بمجرد وصوله إلى مشارفها، علم أعيانها وسكانها بقدومه فخافوا منه وامتنعوا عن استقباله وأغلقوا أبواب المدينة في وجهه، فضرب عماد الدين حصاره حولها وبدأ بمراسلة أعيان المدينة ومماليك البرسقي، وحاول إقناعهم بالمهادنة وبذل لهم الوعود الكثيرة إن سلموا المدينة، غير أنهم امتنعوا عن موافقته، وعند ذلك قرر عماد الدين قتالهم وإخضاع المدينة عنوة. وكان مجرى دجلة يفصل بين جيش عماد الدين والمدينة فأمر قواته بعبور النهر إلى المدينة، فمنهم من عبر بالسفن، وبعضهم بالأكلاك [٢]. ولما تكاثر جيش عماد الدين وشدّد حصاره على المدينة، كان السكان قد خرجوا إلى منطقة بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة وكانوا بخروجهم يحاولون منع جيش عماد الدين من إكمال عبوره، ولكن عساكر عماد الدين تمكنوا من العبور وشددوا الحصار على المدينة، وجرت مناوشات بين مماليك البرسقي والمهاجمين، ظهر فيها التباين بين القوتين، ولم يمض وقت طويل حتى انهزم جماعة البرسقي. ولما رأى أهالي الجزيرة أن ميزان المعركة ليس في صالحهم، ضعفوا وأيقنوا أن على المدينة أن تستسلم أفضل من دخولها عنوة. فبعثوا إلى عماد الدين، يطلبون منه الأمان فاستجاب لطلبهم واستلم المدينة[٣]، ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن

(١) عماد الدين زنكي ص ٦٩، ٧٠.
(٢) تاريخ جزيرة ابن عمر ص ١٢١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢١.

والقلاع بسبب قربه من الموصل وأهميته العسكرية والاقتصادية [١].

ثانياً: حلب ٥٢٢هـ:

تعد حلب ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، بفضل ما تتمتَّع به من حصانة عسكرية، ومركز متميز، وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية هامة، بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وغدت منُذ عهد طويل قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، لذلك كان ضمها من قبل أي قائداً إسلامي، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبؤ مركز القيادة في حركة الجهاد [٢]. وساعدت الظروف السياسية التي كانت تمر بها إمارة حلب التي وجدت نفسها في حالة شديدة من الفوضى، عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البُرسقي في عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م وتعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم، فقد استأثر قتلغ أبه نائب الأتابك المتوفى، بإدارة شؤونها [٣]، في الوقت الذي طمع فيه جوسلين الثاني أمير الرها، وبوهيمند الثاني أمير أنطاكية لاتخاذها قاعدة لمد نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية، وانتشار الخوف والقلق بين السكان [٤]، مما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وقد تزعم الثورة ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف [٥]، ويبدو أن سليمان لم يتمكن من وضع حد لتدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب [٦]، لكن يقظة عماد الدين زنكي أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم وقد سعى إلى ضمِّ حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، ومهَّد لخطواته هذه بإرسال الرسل إليها حتى يشرحوا لسكانها أحقيته في تولي أمورها، كما أرسل حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل في طريقه إليها وضمّ في طريقه بزاعة [٧] ومنبج، ولما وصل إلى مشارف المدينة في شهر جمادى الآخرة عام ٥٢٢هـ شهر حزيران عام ١١٢٨م خرج سكانها لاستقباله آملين بداية عهد جديد من الأمن والاستقرار بعدما سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم، فدخل القلعة وبدأ بتنظيم أمورها، وأقطع أعمالها لأمرائه

(١) عماد الدين زنكي ص ٧١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٠.
(٤) الباهر ص ٣٤، ٣٧ - ٣٨.
(٥) زبدة حلب (٤٣١/١) تاريخ الزنكيين ص ١٠١.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠١.
(٧) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب.

وأجناده [١] وحتى يثبت أقدامه في حلب ويقطع الطريق على المفسدين ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه وذوي المصالح القديمة فيها، فقضى على بعضهم وفرَّ البعض الآخر من وجهه، فقتل قتلغ أبه، وفرَّ إبراهيم بن رضوان بن تتش إلى نصيبين وغادر سليمان بن عبد الجبار المدينة والتجأ فضائل بن بديع رئيس حلب السابق إلى قلعة جعبر القريبة من حلب [٢]. وبذلك تحققّت الوحدة بين الموصل وحلب، مرة أخرى وحصل عماد الدين زنكي على موقع هام، وأمن جانب المعارضة، وتهيأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومجابهة أخطار الصليبيين، كما أدَّى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب [٣].

ثالثاً: سنجار والخابور وحرّان وإربل والرقة:

١ – سنجار والخابور: لم يتعرض زنكي - حين توجه إلى حلب - للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل، إذ كانت الظروف تستدعي منه أن يضع يده على حلب أولاً، ثم ينطلق لغرض سيطرته على المواقع الأخرى من أجل تأمين الطريق إلى الشام وما إن أقرّ الأوضاع في المدينة المذكورة حتى اتجه في أواخر عام ٥٢٢هـ للاستيلاء على سنجار والمناطق المجاورة [٤] وفرض الحصار عليها، إلا أن أهاليها امتنعوا عليه، وإذ لم يروا من مقاومتهم جدوى إزاء إصرار زنكي على اقتحام المدينة، اضطروا إلى مصالحته وتسليم سنجار إليه [٥]. ثم ما لبث أن أرسل من هناك بعض قواته إلى الخابور [٦]، حيث تمكنت من الاستيلاء عليه [٧]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق بين الموصل وحلب، وتشكل منطلقاً للسيطرة على المناطق الأخرى [٨] ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصراً هاماً [٩].

٢ – ضمُّ حرّان: كانت حرّان تابعة لعز الدين مسعود بن البُرسُقي وكانت قد تعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المواقع القريبة منها كالرها وسروج، فاستدعى أهلها عماد الدين زنكي في عام ٥٢٣هـ/١١٢٩م إذ انتهت المشكلة بوفاة سوتكين [١٠].

٣ – ضمُّ إربل: أدرك عماد الدين زنكي أهمية أربل العسكرية بالنسبة للموصل، إذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً

(١) الحروب الصليبية د. سهيل زكار (٦٧٨/٢).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٠١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠١.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٧٤.
(٥) الباهر ص ٣٧ الكامل في التاريخ (٦٦١/٨).
(٦) عماد الدين زنكي ص ٧٤.
(٧) الباهر ص ٣٧ الكامل في التاريخ (٦٦١/٨).
(٨) عماد الدين زنكي ص ٧٤.
(٩) المصدر نفسه ص ٧٤.
(١٠) مفرج الكروب (٨٤/١) تاريخ الزنكيين ص ١٠٢.

صوب الشام، وعندما أتيحت لـه فرصة مهاجمتها لم يتردد رغم كونها ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان أذربيجان فهاجمها عام ٥٢٦هـ وشدد النكير عليها، إلا أن حاميتها استطاعت أن تصمد لحين تقدم السلطان مسعود لنجدتها، فاضطر زنكي إلى الانسحاب، ثم رأى مسعود أن يضحي بهذا الموقع كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضد منافسيه من أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق، فوافق الأخير على اتفاق كهذا يتيح لـه ضم موقع هام إلى إمارته قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً، وبعد أن أخذ كل من الحليفين العهود من صاحبه تسلم زنكي أربل وعين فيها نائباً عنه(١).

٤ – **ضمُّ الرقة** (٢): مرّ عماد الدين زنكي بالرقة في عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م) وهو في طريقه إلى دمشق في محاولة لضمّها فرأى أن يضمها إلى أملاكه، فانتهز هذه الفرصة ونفَّذ خدعة ذكية فأعلن رغبته بالاستحمام في حمام البلد، فقام حاجبه الياغسياني بتدبير هذا الأمر واتفق مع مسيِّب بن مالك صاحب الرقة الذي لم يشك في نوايا عماد الدين زنكي ورجاله على السماح للجيش بدخول المدينة، وما إن أصبح آخر جندي داخل السور حتى أمر عماد الدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة، فأبعد المسيَّب وأقطعها أحد أمرائه (٣).

٦ – **ضمُّ دقوقا** (٤) وشهرزورا (٥) وضم عماد الدين زنكي دقوقاً في عام ٥٣١هـ/١١٣٧م عنوة(٦)، ودخل بعد ثلاث سنوات قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع يمتد من إربل إلى همذان ويقطنه الأكراد (٧) وقد ارتبط هذا الضمُّ بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركماني حاكم شهرزور وبين السلطان السلجوقي مسعود فخشي عماد الدين زنكي أن يتناول الأمير التركماني عن بعض أملاكه للسلطان ومنها شهرزور فيغدو مجاوراً لإمارة الموصل، فيشكل عندئذ خطراً جدِّياً عليه (٨).

٦ – **التوسع باتجاه الجنوب**: توسع عماد الدين زنكي بين عامي (٥٣٦هـ - ٥٣٨هـ/١١٤١ - ١١٤٣م) في الجنوب الغربي، فضمَّ الحديثة الواقعة على الفرات (٩)، وعانة القريبة منها (١٠)، وفي عام ٥٤١ هـ/١١٤٦م كان قد بلغ درجة من القوة مما دفعه إلى ضمِّ قلعة جعبر المطلة على الفرات، عملاً بخطته القاضية: بألاَّ يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره (١١). وكانت هذه القلعة تحت حكم

(١) مفرج الكروب (٩٧/١) عماد الدين زنكي ص ٧٦.
(٢) مدينة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة.
(٣) زبدة حلب (٤٥٠/٢) تاريخ الزنكيين ص ٧٦.
(٤) دقوقاً: مدينة بين إربل وبغداد الحموي (٤٥٩/٨).
(٥) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٣.
(٧) معجم البلدان.
(٨) الباهر ص ٥٧ - ٥٨ تاريخ الزنكيين ص ١٠٤.
(٩) تقع على جزيرة وسط الفرات وهي غير حديثة الموصل.
(١٠) عانة: بلد مشهور، بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة.
(١١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٤.

العقيليين، فهاجمها على حين غرَّة وحاصرها، وتوغلت قواته في ربضها واستمر القتال حتى اليوم الخامس من شهر ربيع الآخر، حيث اغتيل عماد الدين زنكي، فساد الاضطراب صفوف جيشه، فاضطر أفراده إلى فك الحصار[١]، مما سنبحثه مفصلاً بإذن الله تعالى.

رابعاً: علاقة عماد الدين زنكي بالأكراد:

١ – بنو أيوب حكام تكريت ٥٢٦هـ – ٥٤١ هـ: تعتبر علاقة عماد الدين زنكي بالبيت الأيوبي الكردي متميزه وبدأت هذه العلاقة في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ٥٢٦هـ عندما انهزم زنكي في أعقاب المعركة التي دارت بينه - كحليف للسلطان مسعود وبين قوات الملكين طغرل وداود المنافسين للسلطان المذكور [٢] وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب[٣]، فأقام هذه المعابر على دجلة وجهز عدداً من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر ما يحتاجون إليه، وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وإكرام [٤] وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً منه بفضله وحسن ضيافته [٥]. وعندما بلغ بهروز - شحنة بغداد - موقف نائبه في تكريت من زنكي بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه [٦]، وازداد حرج بهروز لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، واضطرّ إلى إصدار أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته، ولم يكن باستطاعة بهروز معاقبة أسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه [٧] في هذه الفترة الحرجة من أواخر عام ٥٣٢هـ ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور [٨]، ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام، ولم ينس زنكي الإحسان فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة [٩] وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته [١٠] والإشراف على تربية أبنائه [١١]، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٤.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٧٦.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٧٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٧٧.
(٥) كتاب الروضتين (٥٣٧/٢).
(٦) وفيات الأعيان (١٤٢/٦) عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(٧) الباهر ص ١١٩عماد الدين زنكي ص ٧٧
(٨) وفيات الأعيان (١٤٣/٦ - ١٤٤) عماد الدين زنكي ص ٧٧
(٩) كتاب الروضتين (٥٣٨/٢).
(١٠) الباهر ص ١١٩ عماد الدين رنكي ص ٧٧.
(١١) عماد الدين زنكي ص ٧٧.

الصليبيين [١]، وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية عماد الدين زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم وعندما استولى على بعلبك عام ٥٣٤هـ عين نجم الدين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها [٢]، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية [٣]، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام ٥٤١هـ، وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده، وبدت عليه سمات النجابة والذكاء والتمعت عيناه ببريق القوة [٤]. وهكذا قدر لعماد الدين زنكي أن يلعب دوراً هاماً في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود [٥].

٢ – الأكراد الحميدية: بدأ عماد الدين زنكي يضمُّ مناطق الأكراد الحميدية بسبب قرب حصونهم من الموصل. وكان الحميديون يقومون في كثير من الأحيان بمهاجمة قرى ومزارع الموصل الشرقية ونهب فلاحيها، مما سبَّب قلقاً وخوفاً لفلاحي الموصل، وعندما أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل، أقرَّ الأمير عيسى الحميدي على ولايته ولم يعترضه بشيء مما في يده [٦] إلا أن الأمير المذكور سرعان ما خرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام ٥٢٧هـ، حيث انضم إليه بجيوشه وأمده بالأقوات، وحشد له عدداً كبيراً من الأكراد، وما إن فشل الحصار وانسحب المسترشد عائداً إلى بغداد حتى بدأ زنكي هجومه على قلاع الحميدية، فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً حتى أنه حمل بنفسه على حامية العقر وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها فوصلت طعنته إليه [٧]، ثم ما لبث أن استولى عليها ٥٢٧هـ منهياً بذلك أسباب القلق والخوف التي كانت تسببه هجمات الحميديين على فلاحي الموصل [٨]، الأمر الذي أدى - ولا ريب - إلى عود ازدهار الحياة الزراعية والتجارية في المنطقة [٩] ونتيجة لضمَّ قلاع الحميدية حقق عماد الدين زنكي هدفين:

الأول: أمَّن المركز العسكري المسيطر على أمن الموصل بفعل ما كانت تشغله الإمارة الحميدية في موقع هام.

الثاني: حصل على موطئ قدم مهد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية [١٠].

---

(١) كتاب الروضتين (٥٣٨/٢) عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(٢) الكامل في التاريخ (٧٥٠/٨) عماد الدين زنكي ص ٧٨.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٧٨.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٧٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٧٨.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في ص ١٠٥.
(٧) مفرج الكروب (٥٥/١) عماد الدين زنكي ص ١٠٥.
(٨) الباهر ص ٤٨، عماد الدين زنكي ص ١٠٥.
(٩) عماد الدين زنكي ص ١٠٥
(١٠) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٠٦.

٣ – الأكراد الهكارية: أدرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة آشب، مدى قوة عماد الدين زنكي، وخطورة النصر الذي حققه على وضع الأكراد بعامة، فاستعطفه بمبلغ من المال، وتوسل إليه ألا يتعرض لـه، ثم ما لبث أن قدم إلى الموصل لإعلان ولائه [١]، والجدير بالذكر أن طائفة من الأكراد الهكارية تقطن في المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال في نهر الخابور الذي يصب في أعالي دجلة، وكانت قلعة آشب مركزهم الرئيسي وتنتشر حولها عدة قرى زراعية ترتبط بها وتؤمَّن لها التموين الغذائي واستمرت العلاقات الجيدة بين عماد الدين زنكي وبين الهكاريين حتى عام (٥٣٧هـ/١١٤٢م) إذ توفي في ذلك العام أبو الهيجاء فدبت الفوضى في إمارته بسبب النزاعات الأسرية وبرز في هذه الصراعات باو ألا رجي، نائب أبي الهيجاء في حكم الإمارة الذي ساند الطفل علي بن الهيجاء ليهيمن من خلاله على شؤون الإمارة ويحكم باسمه، في حين ساند عماد الدين زنكي أخاه أحمد [٢]، ونجح عماد الدين زنكي في ضمِّ قلعة آشب بعد أن هزم باو وأنصاره، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الموصل بعد أن ترك فيها نائبه نصر الدين جقر ليتم ما بدأه بضمِّ منازل الهكارية، فاجتاح هذا القائد القلاع المتبقية وسيطر على المنطقة [٣]، واستطاع عماد الدين زنكي بهذه الانتصارات أن ينهي أعمال الفوضى والفساد في المنطقة، فحل الأمن في ربوعها وعاد نفعه قبل كل أحد على الأكراد أنفسهم، الذين تخلصوا من المنازعات الداخلية على ما يظهر، واتجهوا إلى الإنتاج ثم ما لبث عماد الدين زنكي أن أصدر أوامره ببناء قلعة العمادية - نسبة إلى اسمه [٤] - على أطلال حصن قديم كان الأكراد قد خربوه لعجزهم عن الدفاع عنه [٥] ويبدو أن زنكي أراد اتخاذ هذه القلعة قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الأكراد ضد ممتلكاته هناك، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة [٦].

٤ – الأكراد المهرانية: بدأ عماد الدين زنكي هجماته على الأكراد المهرانية في عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م والجدير بالذكر أن هذه الفئة تقطن عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر، وأهمها كواشي الواقعة في جبال الجودي، شرقي نهر دجلة، والزعفراني، والشعباني وغيرها [٧] والواقع أن ضمَّ المنطقة الخاصة بالمهرانية يُعد خطوة متممة لضمِّ المنطقة الخاصة بالهكارية، بفعل تجاورهما، فبعد أن انتهى عماد الدين زنكي من ضمِّ المنطقة الثانية انتقل إلى ضمِّ المنطقة الأولى. واستطاع أن يفرض سيطرته على عدة قلاع، منها المذكورة أعلاه وألقت هذه الانتصارات السريعة الرعب في قلوب حاميات القلاع الأخرى المجاورة مما دفعها

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٦
(٢) الباهر ص ٦٤ عماد الدين زنكي ص ١٠٦.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاص عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٧.
(٤) الباهر ص ٦٤ عماد الدين زنكي ص ١٠٩.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٠٩.
(٦) المصدر نفسه ص ١١٠.
(٧) الكامل في التاريخ نقلا عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٧.

إلى طلب الأمان، وخضعت لحكم عماد الدين زنكي [١].

٥ – الأكراد البشنوية: التفت عماد الدين بعد ذلك إلى مناطق الأكراد البشنوية في بلاد الزوزان الواقعة في الأرض الممتدة من جبال أرمينية شمالاً حتى الموصل جنوباً ومن أذربيجان شرقاً حتى إقليم ديار بكر غرباً [٢]، وكان أمراء البشنوية قد أنشأوا عدداً من الحصون لعل أهمها حصن فنك المطل على نهر دجلة، واتخذوه مركزاً رئيسياً لهم نظراً لما يتمتع به من حصانة طبيعية ومتانة وكان أميرهم آنذاك حسام الدين البشنوي قد اشترك مع عدد من الأمراء الأكراد القاطنين شمالي الموصل في إثارة الفتن والاضطرابات ضد إمارة عماد الدين زنكي، فهاجمها هذا الأخير وأخضعها لسلطانه، باستثناء حصن فنك الذي أوكل مهمة إخضاعه إلى قائده زين الدين على كجك في حين توجه هو لحصار قلعة جعبر، وفرض كجك الحصار على الحصن وصادف أن اغتيل عماد الدين زنكي أثناء حصار قلعة جَعْبَر فاضطر كجك إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل [٣]. تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها، واستطاع أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته في أقل من عقد ونصف، بفضل قدرته العسكرية، وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة، وسط فئات لا تدين له بالولاء وقد تمكن بذلك من تأمين إحدى الجهات الهامة لإمارته بعد أن كانت تشكل نقاط خطر عليه، وأن يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها، تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول إمارته عندما قال يوماً: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول [٤].

خامساً: عماد الدين والإمارات المحلية في ديار بكر:

كان هدف زنكي، بعد أن تمّ له الاستيلاء على حلب واتخاذها قاعدة في بلاد الشام، السيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل والتي كان يحكمها أمراء مستقلون، عملا بخطته القاضية: بألا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره، حزماً منه واحتياطاً. ذلك أنه كان يستهدف - كما ذكرنا - إنشاء إمارة موحدة قوية، تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. وكان عليه - لتحقيق هذا الهدف - اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر، والتي كانت تشكل خطراً على مواصلاته مع الشام، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين [٥].

أ – ضّم نصيبين: بدأ عماد الدين زنكي حركته التوسعية الهادفة إلى توحيد الإمارات الإسلامية بالهجوم على نصيبين التابعة لإمارة ماردين وقد اختارها أولاً بفعل كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه، فضرب عليها حصاراً مركزاً فاستنجد حاكمها حسام الدين تمرتاش بداوود بن لقمان

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٨.
(٤) مفرج الكروب (١٠٣/١) عماد الدين زنكي ص ١١٦.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٨٥.

صاحب حصن كيفا، لصدِّه وإرغامه على فك الحصار عنها، فوعده بالمساعدة [١]، كما بعث إلى أهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة على جناح طائر. يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الأرتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة أيام، إلا أن الرسالة وقعت بيد زنكي واطلع على ما فيها، ورأى أن ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه، فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهل نصيبين بدلاً من الرسالة الأولى، جاء فيها: من حسام الدين تمرتاش، إنني قد قصدت ابن عمي داود وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش، وسوف لن يتأخر قدومه إلينا بأكثر من عشرين يوماً، لذا أطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة [٢] وبعث الرسالة على جناح الطائر نفسه، ولم يشك النصيبيون لحظة واحدة بأنها وردت إليهم من أميرهم الأرتقي: فخافوا على نفوسهم وأيقنوا أنهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة، لذا أرسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا مدينتهم إليه فبطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه [٣] وبفتح نصيبين انفسح الطريق أمام زنكي لتحقيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر، إذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة [٤].

ب – معركة دارا: مهد ضمُّ نصيبين الطريق أمام عماد الدين زنكي لتحقيق أهدافه في ديار بكر بعد أن تأكد من عجز الحكام المحليين عن مواجهته، إذ غدا هذا الموقع قاعدة انطلاق للانتشار في المنطقة ومن جهتهم أدرك أمراء هذا الإقليم مدى خطورة توسع عماد الدين زنكي على أملاكهم، فتداعوا في عام (٥٢٤هـ/١١٣٠م) إلى عقد حلف للوقوف في وجهه، اشترك فيه الأميران الأرتقيان حسام الدين تمرتاش وابن عمه ركن الدولة داوود، وانضمَّ سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب آمد إلى الحلف، بالإضاف إلى عدد كبير من أمراء التركمان الموالين لداوود [٥]، ولما سمع عماد الدين زنكي بحشود الأمراء قرّر مباغتة القوم قبل أن يتهيأوا للقتال، فانطلق على رأس أربعة آلاف مقاتل، والتقى بهم بالقرب من دارا[٦] التابعة لتمرتاش، وانتصر عليهم. كانت النتيجة الفورية للمعركة سيطرة عماد الدين زنكي على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجي [٧] ودارا [٨]، وحتى يعرقل توغله في المنطقة، قرَّر داود مهاجمة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، مما دفع عماد الدين زنكي إلى ترك ديار بكر والتوجه إليه لإيقافه عند حده لكنه لم يتمكَّن من التوغل بعيداً بسبب وعورة المسالك، وانتشار التركمان في المنطقة، فاكتفى باستقطاب السكان في

(١) التاريخ الباهر ص٣٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ - ٣٧ عماد الدين زنكي ص ٨٦.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٨٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٨٧.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١١٠.
(٦) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين.
(٧) سرجي أو سرجة: حصن بين نصيبين ودُنسير ودارا.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١١١.

الجهات التي بلغها ثم قفل عائداً[١].

٣ – أساليب سياسية من عماد الدين زنكي لإحداث انشقاق وتنافر في صفوف الأراتقة: أدرك زنكي، إثر هذه الأحداث، مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين أمراء ديار بكر ضد مطامحه في المنطقة، فرأى أن يلجأ إلى الأساليب السياسية علها تتيح له إحداث انشقاق وتنافر في صفوف أولئك الأمراء كي يسهل عليه - بعد ذلك - اقتطاع أراضيهم وممتلكاتهم. واعتقد أن خير ما يبدأ به خططه السياسية هو إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة، لما كان يتميز به هذا من حقد ورغبة بإنزال الضربات بعدوه وتحين الفرص للانقضاض على ممتلكاته [٢]، كما أن زنكي لم يشأ أن يتخذ من صاحب آمد حليفاً له، لضعف إمكانياته وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حالة نشوب قتال بين أمير الموصل والأراتقة، ولم يبق أمامه إذن سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان أكثر مرونة من ابن عمه داود، لذا أخذ يتقرب إليه، وأوقف مهاجمته لممتلكاته وسرعان ما أحس الأمير الأرتقي باتجاه زنكي الودي منه، ورأى أن التضحية بابن عمه داود لابد منها في سبيل كسب حليفه الجديد، وائتمان جانبه، والسعي - عن طريق هذا التحالف - للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة[٣].

أ – مهاجمة حصن آمد: شهد عام ٥٢٨هـ لقاء وديّاً بين الحليفين انطلق بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع آمد، وفرضا الحصار عليه، فأرسل صاحبه سعد الدولة إيكلدي (٥٠٣هـ - ٥٣٦هـ) يستنجد بداود الأرتقي، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان واتجه لفك الحصار عن آمد، وهناك عند أسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في أواخر جمادى الآخرة من ذلك العام، وانتهى القتال بهزيمة داود وأسر ولده ومقتل عدد من جنده، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع، وكي يلقيا الفزع واليأس في نفوس أصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة إلا أن آمد صمدت وأقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلاً ورضي زنكي من صاحبها - لقاء فك الحصار تقديم مقدار من المال [٤] ثم اتجه الحليفان بعد ذلك إلى قلعة الصَوْر [٥] القريبة وهي من ممتلكات داوود ويحكمها ابنه قرا أرسلان فحاصراها وأرغماها على الاستسلام، وأهداها عماد الدين زنكي لحليفه تقديراً لمساعداته وتأكيداً لتحالفهما [٦].

ب – اتساع شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود: نتيجة لهذا الانقسام في الصف

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١١.
(٢) مفرج الكروب (٥٢/١).
(٣) عماد الدين زنكي ص ٨٨.
(٤) زبدة حلب (٢٥٣/٢) عماد الدين زنكي ص ٨٩.
(٥) الصَوْر: قلع حصينة عجيبة على رأس جبل قرب ماردين بين الجبال من أعمال ماردين.
(٦) الاعتبار لابن منقذ ص ١٩٩ - ٢٠١ تاريخ الزنكيين ص ١١٢.

الأرتقي، اتسعت شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داوود وبدت في الأفق السياسي بوادر نزاع مسلح بينهما في الوقت الذي ازداد فيه التحالف بين تمرتاش وعماد الدين زنكي متانة وصلابة. وقام الحليفان بشن هجوم مشترك على جبل جور [١] والسيوان في عام (٥٣٠هـ) وتمكّنا من ضمهما، ومنحهما زنكي لحليفه تماشياً مع خطته في تقوية التحالف معه [٢]، وأدت هذه الانتصارات السريعة إلى إلقاء الرعب في روع قرا أرسلان بن داود الذي أدرك أنه أمام عدو صلب قوي وبالتالي عدم جدوى المقاومة، فغادر المنطقة إلى قاعدة أبيه في حصن كيفا، تاركاً مناطق ولايته لقمة سائغة في يد عماد الدين زنكي، وحاول تمرتاش الإفادة من تحالفه مع عماد الدين زنكي في توسيع رقعة إمارته بضم بعض المواقع القريبة، وتمكَّن في عام (٥٣٠هـ/١١٣٦م) من ضم قلعة الهتَّاخ [٣]، وهي آخر الحصون المروانية في ديار بكر [٤].

ج – تعرّض التحالف الزنكي الأرتقي إلى الاهتزاز: تعّرض التحالف الزنكي - الأرتقي إلى الاهتزاز في عام (٥٣٣هـ/١١٣٨م) وبدا في الأفق السياسي ما يشير إلى فتور في العلاقات بين الحليفين ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى:

– التجاء الأمير أبي بكر، نائب عماد الدين زنكي في نصيبين إلى حسام الدين تمرتاش، بعدما خرج عليه، فرفض الأخير تسليمه إلى عماد الدين زنكي رغم إلحاحه وجرت بينهما منازعات طويلة بسبب ذلك، فاضطر تمرتاش إلى تسليمه إلى السلطان مسعود الذي سلمه بدوره إلى عماد الدين زنكي لينال عقابه [٥].

ح – عودة الوئام بين تمرتاش وداود: أدرك كل من تمرتاش وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينهما واتسع إلى درجة الحرب والتخريب لن يفيد أيا منهما بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة، وبالتالي إضعاف قوى الأراتقة جميعاً، كي يصبحوا بعد ذلك هدفاً سهل المنال، لذا قام كل من الأميرين الأرتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام ٥٣٦هـ، وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما وما لبث داود أن اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنين طويلة من العداء [٦].

س – سعي عماد الدين زنكي في كسب حليف جديد: لم يغب عن زنكي أن الصلح الذي تم بين الأراتقة سيكون على حسابه للحد من مطامحه في المنطقة، فسعى إلى اتخاذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة واكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة من جهة أخرى، وقد تمكن - في أقل من عام - من تحقيق هدفيه هذين، وذلك بأن أرسل إلى صاحب آمد [٧] يتهدده إن استمر زنكي

(١) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٢.
(٣) الهتاخ: قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٢.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٣.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٩٢.
(٧) المصدر نفسه ص ٩٢.

استطاع أن يحصل على مركز قوي في ديار بكر، وأن يستغل هذا المركز لمدّ نفوذه هناك، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة والتابعة لعدد من الأمراء، كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق الذي يقف عائقاً دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي الشام [١].

ش – حملة عسكرية واسعة من عماد الدين زنكي: وشهدت أواخر عام ٥٣٧هـ ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر والتابعة لأمير يدعى يعقوب بن السبع الأحمر الذي لم تشر المصادر - بوضوح - إلى تاريخه السياسي، وهويته وطبيعة علاقاته بأمراء ديار بكر [٢]. وقد تمكن زنكي في حملته هذه - من الاستيلاء على مدينة طنزة، والسعرد والمعدن[٣] وحيزان [٤]، وحصن الزوق [٥]، وفطليس [٦] وباتاسا [٧]، وحصن ذي القرنين[٨]، وأنيرون[٩]، وقام بترتيب أوضاع هذه المواقع والحصون، ووضع في كل منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضد هجمات الأعداء [١٠] وأسرع زنكي - بعد إنجازه هذه الانتصارات - بالتوجه إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش وعسكر بقواته الكبيرة، في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمي) أملاً أن يقوم حبشي، المقيم في ميافارقين، بفتح الأبواب لدخول قواته والسيطرة على المدينة والقلعة دون إراقة قطرة من دماء، إلا أن الخطة اكتشفت، واتفق رجلان من كبار أعيان البلد ومسؤوليه على اغتيال حبشي وإنهاء الخطر المحدق بميافرقين [١١]، فتسللا إلى خيمته ليلاً وضرباه بالسيوف، ثم حملا رأسه إلى تمرتاش في ماردين، وسرعان ما انتشر نبأ الحادثة، فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى، واضطر قائده إلى الانسحاب، إذ أن مقتل حبشي المفاجئ جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميافارقين، فقفل عائداً إلى نصيبين[١٢] وفي مطلع العام التالي (٥٣٩هـ توفي داود بن سقمان صاحب حصن كيفا، فخلفه ابنه فخر الدين قرا أرسلان ويبدو أن هذا الأخير لم يكن يتمتع، كأبيه، بمقدرة سياسية أو عسكرية فرأى أن خير وسيلة لإيقاف عماد الدين زنكي هي إعادة التحالف القديم بين إمارتي حصن كيفا وماردين، فقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل فصاهر تمرتاش[١٣] واستغل عماد الدين ضعف

(١) عماد الدين زنكي ص ٩٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٣) تقع قريباً من منابع نهر دجلة سميث بذلك بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس.
(٤) بلد كثير الأشجار والبساتين.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٩٤.
(٦) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٧) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٨) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٩) المصدر نفسه ص ٩٤.
(١٠) المصدر نفسه ص ٩٤.
(١١) المصدر نفسه ص ٩٤.
(١٢) عماد الدين زنكي ص ٩٥.
(١٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٥.

قرا أرسلان، فتوسع على حسابه، وضمَّ مناطق واسعة من إمارة الحصن، وقد أدَّت العمليات العسكرية التي نفَّذها إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش وبخاصة أنه هاجم قلعتي الجور والسيوان وضمهما إلى أملاكه، بعد أن كان قد منحهما لهذا الأخير والواقع أن عماد الدين زنكي لم يأبه لهذا النزاع بعد أن أضحى مركزه قوياً في ديار بكر، فقرَّر استئناف هجماته على الأملاك الأرتقية، فاتجه إلى آمد في محاولة لضمها إلا أنه انهمك بمهاجمة إمارة الرها الصليبية، فانقذ تمرتاش من هجوم جديد ضد أملاكه [١].

ك – موقف عماد الدين من إمارة أرمينية: لابد قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي بأمراء أرمينية المتاخمة لذلك الإقليم [٢]، إذ أرسل في عام ٥٢٨هـ يطلب خطبة ابنة سمكان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الإمارة منُذ وفاته عام ٥٠٥هـ وصادف في الوقت نفسه أن تقدم حسام الدولة بن دلماج أمير بدليس المجاورة، يخطب هذه الفتاة لابنه، الأمر الذي أغضب زنكي أشد الغضب، واعتبر الموضوع بمثابة تحدّ لرغبته، فتقدم على رأس قواته إلى خلاط، سالكاً بجنده الطرق الجبلية الوعرة، غير المسلوكة من أجل أن يبلغ هدفه بأسرع وقت ممكن [٣]. فكان الجيش بغير خيام وكل جندي في موضعه من الطريق [٤]. وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريباً منها، واتجه زنكي مع كبار أفراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما إن أتم ذلك حتى قام بإرسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس على رأس قسم من قواته، لتأديب صاحبها، إلا أن هذا استطاع إقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال [٥]. وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بإمارة أرمينية، وكسب - بذلك - صديقاً جديداً، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من أرمينية، أو ضمن حياده على الأقل، سيما وأن هذه الإمارة كانت تجاور أعداءه في ديار بكر ومناطق الجبال الكردية، مما كان يحتم إبعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الأعداء ولم يحاول زنكي - من جهة أخرى - أن يتوسع على حساب هذه الإمارة، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته، وعدم تشكيلها خطراً مباشراً عليه، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع المستقلة في أقاليم الجبال وديار بكر، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع أمرائها، هذا إلى أن المنشور، الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي، نص على توليته الموصل والجزيرة والشام، دون أية إشارة إلى أرمينية وفضلاً عن هذا وذاك، كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الإسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين، ولم تكن أرمينية ذات غناء كبير في هذا المجال، وأخيراً لا بد أن نلاحظ بعد نظر زنكي في سياسته التي استهدفت عدم إضعاف الإمارة المذكورة التي كانت بمثابة حزام واقٍ ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من آسيا الصغرى وأرمينية، أولئك الذين كانوا يشكلون خطراً على

(١) المصدر نفسه ص ١١٥.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٩٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٧.

المناطق المجاورة [١].

سادساً: عماد الدين زنكي، وأمراء دمشق:

١ – ضمّ حماة: أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضمّ دمشق والمدن المحيطة بها إلى أملاكه، وأقام محور الموصل - حلب - دمشق لأن قطع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب. والواقع أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزع آنذاك بين ثلاث قوى:

أ - محورها بوري بن طغتكين، أتابك دمشق الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال، وحوران في الجنوب والجدير بالذكر أن آل طغتكين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية من سلاجقة الشام، وكانت مشكلتا دمشق الرئيستان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل وحلب، وقوة الصليبيين في بيت المقدس، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين، البقاع في الشمال الغربي، وحوران في الجنوب الشرقي، اللذين يؤمّنان لها القمح والعلف.

ب - محورها صمصام الدولة خير خان بن قراجا، أمير حمص.

ج - محورها سلطان بن منقذ، الأمير العربي الذي يسيطر على شيزر.

وحتى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يضم حماة وحمص أولاً الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية هامة، ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة أو فرض الحصار عليها [٢] ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب والمناورات السياسية لضمّ حماة وحمص، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة، فأرسل إلى بوري بن طغتكين في دمشق يخطره بنيته في محاربة الصليبيين، ويلتمس منه المساعدة، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج من عسكره لنجدة عماد الدين زنكي، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس، لتنضَّم إلى القوات الإسلامية. رحب عماد الدين زنكي بقدوم سونج، وأحسن لقاءه، لكنه لم يلبث أن قبض عليه، وعلى عدد من أمرائه وقادته، وأرسلهم إلى حلب ثم تقدم مسرعاً إلى حماة، منتهزاً خلوها من الدفاعات ودخلها في شهر شوال عام ٥٢٤هـ/ شهر أيلول عام ١١٣٠م سلَّمها لحليفه خير خان صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته [٣].

٢ – محاولة ضمّ حمص: ويبدو أن هذه الخطوة كانت خدعة من عماد الدين زنكي ليطمئن حليفه قبل أن يضربه، وفعلاً انقلب عليه بعد ذلك، فقبض عليه، وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة

(١) المصدر نفسه ص ٩٨.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٦.
(٣) زبدة حلب (٤٤٠/٢) تاريخ الزنكيين ص ١١٦.

قبل أن يرسله إلى حلب، ثم أسرع بمهاجمتها [١]. إلا أن أهالي حمص قاتلوا ببسالة كبيرة، اضطرت زنكي - أخيراً - إلى فك الحصار والعودة إلى حلب [٢]. حيث أرسل من هناك كلاً من خير خان وسونج وأمرائه لكي يعتقلوا في الموصل. ثم ما لبث بوري أن أخذ يراسل زنكي مَلتمساً إطلاق سراح ابنه وأخيراً تمت موافقة أمير الموصل على إعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيساً بن صدقة - أمير الحلة - الذي كان محتجزاً آنذاك في دمشق [٣]. أما خير خان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام ٥٢٩هـ [٤] ما لبث زنكي أن قام - في العام التالي - بهجومه الثاني على حمص، لكنه جوبه بنفس المقاومة الشديدة، فآثر الانسحاب انتظاراً لفرصة مواتية أخرى [٥]، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق، فأعقبه في الحكم ابنه إسماعيل الذي كان أكثر طموحاً واندفاعاً من أبيه، فعزم على مهاجمة حماة، وتمكن من استردادها في شوال عام ٥٢٧هـ بعد أن أبدت حاميتها مقاومة عنيفة[٦].

٣ – محاولة التفاهم مع حكام دمشق: حدث في شهر رجب عام ٥٢٦هـ/ شهر حزيران عام ١١٣٢م أن توفي بوري بن طغتكين، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد ونجح هذا الحاكم الجديد في استعادة حماة في أول شهر شوال عام ٥٢٧هـ/شهر آب عام ١١٣٣م [٧]، مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة، وبالغ في ظلم الأهالي ومصادرة أموالهم، كما أسرف في التخلص من معارضيه، حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته، فاضطربت أحوال دمشق، وتألّب الجميع عليه [٨]، وكان قد أدرك إصرار عماد الدين زنكي على مهاجمة دمشق وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان قرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه عام ٥٢٩هـ يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعاً، وشرط عليه - لقاء ذلك - أن يمكنه من الانتقام من خصومه، وأبلغه أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه قام باستدعاء الصليبيين، وسلمهم دمشق وكان إثم المسلمين في عنق زنكي. ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله وممتلكاته إلى صرخد، استعداداً لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا لوالدته - ذات النفوذ الكبير في الإمارة - العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء فأسرعت بتدبير قتله، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس [٩]، كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل وعبر الفرات في طريقه إلى

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٧.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٢٠.
(٣) المنتظم (٢٠/١٠).
(٤) مفرج الكروب (٧١/١).
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٢١.
(٦) الاعتبار ص ٩٧ - ٩٨ عماد الدين زنكي ص ١٢١.
(٧) ذيل تاريخ دمشق نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١١٧.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٢١.

دمشق، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت، لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة التفاهم مع الحكام الجدد، لذلك واصل سيره حتى بلغ أرباض المدينة وأرسل رسولاً إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة [١].

٤ – حصار دمشق: الواقع أن الدمشقيين رفضوا التفاوض معه وأصروا على المقاومة. وأصر هو من جهته على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها في أوائل جمادى الأولى ونفَّذ غارات على أطرافها، فردّ عليه الدمشقيون بغارات مضادة وتزعم حركة المقاومة معين الدين أنر أحد مماليك طغتكين [٢] ولما فشل في اقتحام المدينة اضطر، تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية المستجدَّة إلى عقد صلح مع الدمشقيين في آخر شهر جمادي الأولى عام ٥٢٩هـ/شهر آذار عام ١١٣٥م وقفل عائداً إلى حلب[٣] والواضح أن الظروف التي دفعته إلى فك الحصار تكمن في الأحداث التالية:

أ - قيام الدمشقيين بمضايقة جيشه في الوقت الذي أخذت أقواته في التناقص.

ب - تسلُّل بعض جنوده إلى دمشق، وانضمامهم إلى الدمشقيين.

ج - بَعَثَ حكام دمشق إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله مبلغاً من المال، قدره خمسون ألف دينار، وطلبوا منه دفع عماد الدين زنكي عنهم، وتعهدوا، إذ نجح في ذلك بأن يرسلوا مبلغاً مماثلاً كل سنة، فقبل الخليفة هذا العرض وأرسل إليه يأمره بفك الحصار عن دمشق، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعاونته ضد السلطان مسعود [٤]، وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمِّ دمشق، كما ظلَّت هذه المدينة أمداً طويلاً تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام [٥].

٥ – تجدُّد الغارات على حمص: تمكَّن عماد الدين أثناء عودته إلى حلب، بعد أن فكَّ الحصار عن دمشق من إعادة ضمّ حماة إلى أملاكه، كما هاجم حمص، إلا أنه فشل في دخولها [٦] ويبدو أن هذه المدينة ظلت طيلة السنوات الثلاثة التالية ٥٣٠هـ - ٥٣٢هـ/١١٣٥ - ١١٣٧م) عرضة لهجماته، إذ شهد عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م محاولة أخرى لضمها، فوجد قريش بن جبرخان نفسه عاجزاً عن صده، فاستنجد بشهاب الدين محمود صاحب دمشق يلتمس منه إرسال من يراه كفؤاً لتولي شؤون الحكم فيها على أن يعوِّضه عنها بإحدى مدن إمارته، وافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضَّم مدينة كبيرة وهامة كحمص إلى إمارته فتسلمها في شهر ربيع الأول عام ٥٣٠هـ/شهر كانون الأول عام ١١٣٥م وأقطعها معين أنر [٧] لم يركن الزنكيون إلى الهدوء وتابعوا شن الغارات على

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٨.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص١١٩.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٩.
(٤) المنتظم (٤٣/١٠) تاريخ الزنكيين ص ١١٩.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٩.
(٦) زبدة حلب (٤٥١/٢ - ٤٥٢) تاريخ الزنكيين ص ١١٩.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٠.

حمص بقيادة سوار بن إيتكين، غير أن المدينة صمدت وانتعشت بما كان يدخلها من الميرة والأقوات، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض، واستقر الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر [١]. آمن عماد الدين زنكي دائماً بأن قيام الجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام، يجب أن يسبق أية خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين، فرفض من هذا المنطلق إقرار الهدنة التي عقدها نائبه في حلب، وجدَّد الهجوم على حمص في شهر شعبان عام ٥٣١هـ/شهر آيار عام ١١٣٧م إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها معين الدين أنر من جهة، وظهور بوادر تحالف خطير بين الزعماء الصليبيين من جهة أخرى، إذ قام فولك أنجو، ملك بيت المقدس، برفقة ريموند الثاني، أمير طرابلس، بنجدة المدينة[٢].

٦ – الهدنة مع حكام دمشق: اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين المنيع، فانتصر عليهم [٣]، وتهيأت له الفرصة مرة ثانية لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين، وتوحيد بلاد الشام فقام في أوائل عام ٥٣٢هـ/ أواخر عام ١١٣٧م بمهاجمة بعلبك إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها [٤]، واتجه إلى حصن المجدل فاستولى عليه دون مقاومة تذكر، وإذ ذاك شعر إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي فراسله وأعلن دخوله في طاعته، وعندما دخل الشتاء واشتد البرد، أوقف زنكي نشاطه في المنطقة [٥].

٧ – الحصار على حمص: ومع بوادر الربيع انطلق على رأس قواته صوب حمص وفرض الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوّة أتاح لنفسه معها أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي، كما أنه باستيلائه على حصن المجدل، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك وبانياس تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لإمارة آل طغتكين، ولم يبق أمامه، لاتخاذ طريقه صوب دمشق، سوى مدينة حمص [٦] شدد عماد الدين زنكي الحصار على حمص، وجمع عليها جموعاً كبيرة من مقاتلي التركمان استقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على أساليب الحصار وقام بشن هجماته على أنحاء المدينة، مستخدماً هذه المرة مزيداً من أساليب العنف والإرهاب، إلا أنه اضطر إلي فك الحصار وتوجه لمجابهة أخطار التحالف البيزنطي - الصليبي، وقد تمكن في فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب إمبراطور الروم إلى بلاده[٧]، وعاد زنكي إلى حصار حمص من جديد، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السلمية لتحقيق هدفه، مستغلاً مركزه القوي في المنطقة إثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضد

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٠.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٢٤.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٢٤.
(٦) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٧) المصدر نفسه ص ١٢٥.

الصليبيين والبيزنطيين فتقدم طالباً يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي، فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة وتمت إجراءات العقد في السابع عشر من رمضان، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصا كجزء من الاتفاق، على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق كبعرين واللكمة والحصن الشرقي كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود - مستهدفاً من وراء ذلك - إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب [١].

٨ – تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق: ظن عماد الدين زنكي أنه بهذا الرباط العائلي ستصبح دمشق في متناول يده إلا أنه لم يكسب شيئاً، باستثناء الحصول على حمص فقط، أما ضمُّ دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج فلم يتحقق. ويقول ابن الأثير في ذلك: إنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكيمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها [٢] فما الذي تغير في الأوضاع السياسية في دمشق وحال بين عماد الدين زنكي وبين تحقيق هدفه؟ الواقع أنه ما إن غادرت زمرد خاتون دمشق حتى فقدت مكانتها السياسية العالية التي كانت تتمتع بها، حيث غدت الكلمة الأولى لابنها محمود وحاشيته [٣]. وشكَّلت سنة (٥٣٣هـ/١١٣٩م) نقطة تحول هام في تاريخ دمشق، فقد هوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين، فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من الجنوب، في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال، ولم يدرك الدمشقيون أي الخطرين كان أشد على وضع مدينتهم إلا أن الجنوبية، شهدت هدوءاً يكاد يكون تاماً بعد حملة عام ٥٢٣هـ/١١٢٩م، ثم تحقق السلام بين الجانبين في عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م والذي كان من الممكن أن يتجدَّد. أما سياسة عماد الدين زنكي تجاه دمشق، فقد اختلفت كلياً، فإنه بوصفه المدافع الأول عن المسلمين، فقد رأى توحيد صفوفهم تحت رايته، ولكن دمشق وقفت عقبة أمام تحقيق ذلك فكان عليه تذليلها وشهدت دمشق خلال (شهر شوال / شهر حزيران) تطورات سياسية متسارعة أدّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله، وتنصيب أخ له غير شقيق هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك. والراجح أن معين الدين أنر كان وراء هذه الأحداث بهدف السيطرة على الحاكم الجديد والتفرد باسمه بالسلطة الفعلية. وفعلاً حقَّق أنر هدفه بعد أن فوَّض إليه الأتابك أمور المدينة وأقطعه بعلبك [٤]. وهكذا أدّت تلك التطورات السياسية إلى ازدياد نفوذ أنر مما حمل ابن الأثير على وصفه بأنه صار هو الجملة والتفصيل [٥]، ولم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي، كما عزَّ على زمرد خاتون التي كانت تقيم في حلب أن يقتل ابنها ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها، فأرسلت إلى عماد الدين زنكي، وكان في الموصل تستدعيه طالبة

(١) مرآة الزمان ١٦٥/٠٨) عماد الدين زنكي ص ١٢٥.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٢.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٢.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٣.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٣.

الثأر لولدها والسيطرة على دمشق [١]. كما أن الأمور لم تستتب للحكام الجدد بسهولة، إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخ يدعى بهرام شاه، عزَّ عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود، فلجأ إلى حلب، ومنها سار إلى الموصل، طالباً مساعدة عماد الدين زنكي [٢]، وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى للتدخل في شؤون دمشق، فأعدَّ جيشاً خرج على رأسه في (شهر ذي القعدة عام ٥٣٣هـ/شهر تموز عام ١١٣٩م) قاصداً دمشق لاقتحامها قبل أن تستتب الأمور فيها، ويبدو أنه أدرك أن مهاجمة دمشق ليس بالأمر الهين، هي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري، إذ لم يكد سكانها يسمعون بأخبار الزحف باتجاه مدينتهم حتى صمَّموا على الدفاع والمقاومة انطلاقاً من هذا الواقع، وضع خطة عسكرية من شقين:

* تنفيذ حصار شديد على دمشق وعزلها عن بقية ممتلكاتها.

* تكوين جبهة مناهضة لحكامها [٣].

وتنفيذاً للشق الأول هاجم بعلبك، التي كانت إقطاعاً لأنر، ودخلها في شهر صفر عام ٥٣٤هـ/شهر تشرين الأول عام ١١٣٩م ووضع يده عليها [٤]، والواضح أن ضمَّ بعلبك في هذه الآونة وحمص وحماة وبانياس والمجدل من قبل، هيَّأ له تحقيق الشق الأول من خطته بعزل دمشق ومنع حكامها من الاتصال ببقية أجزاء الإمارة لطلب المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمر الذي سيضعف من مقاومتها إلى حد كبير [٥]. وتنفيذاً للشق الثاني قام بجهود سياسية لتقوية موقفه، فراسل رضوان ابن الولخشي، الوزير الفاطمي، الذي كان في طريقه إلى دمشق هرباً من ثورة الجند عليه وأغراه بالانضمام إليه، وفعلاً استجاب الوزير الفاطمي ومال إلى مساندته [٦]. ويبدو أن أنر أدرك خطورة هذ التحالف على وضعه الداخلي، فسعى لإحباطه وأرسل أسامة بن منقذ إلى رضوان ليقنعه بالعدول عن هذا التحالف، وبذل له من الأموال ما أغراه [٧]. وظل عماد الدين زنكي قابعاً في بعلبك حتى (شهر ربيع الأول عام ٥٣٤هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٣٩م، أعاد خلالها تنظيم أمورها الإدارية وعين عليها نجم الدين أيوب، ثم زحف نحو دمشق، وعسكر في سهل البقاع، ورأى قبل أن يهاجمها استقطاب الأتابك جمال الدين لتسليمه المدينة، مقابل منحه حمص وبعلبك إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض، وسانده رجال دولته وعلى رأسهم معين الدين أنر [٨] عندئذ اضطر إلى التقدم نحو المدينة وفرض الحصار عليها، ودارت عدة اشتباكات بين الطرفين لم تكن حاسمة إنما جاءت لمصلحة عماد الدين زنكي، الذي أوقف القتال مدة عشرة أيام لإعطاء المحاصرين فرصة أخرى

(١) زبدة حلب (٤٦٢/٢) تاريخ الزنكيين ص ١٢٣.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٦) الاعتبار ص ٣٧ - ٤٠ تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٤.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٤.
(٨) المصدر نفسه ص ١٢٥.

للتسليم [١]، ويبدو أن جمال الدين محمد اقتنع أخيراً، بعدم جدوى المقاومة، وضرورة حقن الدماء، إلا أنه جوبه بمعارضة أنر فوجد نفسه مضطراً لاستئناف القتال[٢]. وفي شهر شعبان عام ٥٣٤هـ/ شهر آذار عام ١١٤٠م توفي جمال الدين محمد، مما أتاح لعماد الدين زنكي، في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق، فرصة مؤاتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة، إلا أن أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين زنكي، الذي ضعفت نفسه وضاق صدره إلى التراجع قليلاً، بعدما رأى إصرار الدمشقيين على المقاومة لكنه استمر في حصاره أملاً في انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق، ومن استسلام المدينة [٣].

٩ – التحالف بين حكام دمشق والصليبيين: وأمام استمرار الحصار، واشتداد الخطر الزنكي، رأى أن يستعين بالصليبيين، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك أنجو، ملك بيت المقدس لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة وأبدى استعداده، بأن:

أ - يدفع عشرين ألف دينار كل شهر، وهي نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.

ب - يعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع لزنكي.

ج - يسلمه عدداً من كبار أمرائه ليكونوا رهائن ضماناً لحسن التنفيذ وأوضح له أنه إذا نجح عماد الدين زنكي في ضمِّ دمشق فإن مقدرات بلاد الشام ستصبح بين يديه مما يشكل خطراً كبيراً على الصليبيين وفعلاً، أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري أن عماد الدين زنكي الذي بات يمتلك الموصل وحلب وحماة وحمص وبعلبك، لا ينبغي، بأي حال، أن يمتلك دمشق، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق ستصبح واقعاً، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون المثمر مع أنر، وساد بينهم الشعور بأنه لابَّد من قبول عرضه، وبخاصة أنهم كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس [٤]، وسرعان ما اتجه الصليبيون شمالاً بقيادة فولك لنجدة حليفهم. أما عماد الدين زنكي ظل يراقب الوضع عن كثب، وفك الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة، وأسرع للتصدي للصليبيين منفردين قبل أن يقتربوا من دمشق وعسكر في إقليم حوران في شهر (رمضان/نيسان) بانتظار وصولهم ويبدو أن فولك، الذي كان يتقدم بحذر، فضَّل التوقف قرب بحيرة طبرية، مما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، بيد أن ما لبث أن فكَّ الحصار عندما سمع بتقدم الصليبيين لنجدة حلفائهم، وعاد إلى حمص وتمكنَّ الحليفان من الاستيلاء على بانياس في شهر (شوال/ آيار) وتسلمها فولك وفقاً للاتفاق المبُرم مع أنر. والواقع أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس، أنقذ الأولى دون أن ينشب القتال، وتخلصَّ أنر من أخطر وآخر محاولة جدّيه من عماد الدين زنكي لضمَّها إلى أملاكه، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه ظل

(١) المصدر نفسه ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٥ نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦.

على الرغم من ذلك يفكر طوال سنوات حكمه المتبقية بتحقيق هذا الهدف[١].

* * *

(١) المصدر نفسه ص ١٢٦.